تاريخ افتتاح الأندلس

لابن القوطيـــة

وكتاب أخبار مجموعة

لمؤلف مجهـــول

دراسة وموازنة

● نشر المستشرق الاسبانى الـكبير خوليان ريبيرا هـذه الدراسة مقدمة لكتاب « افتتاح الاندلس » ، عندما ترجمه الى الاسبانية ، ونشره مجمع التاريخ الملكى ، فى سلسلة الـكتب التاريخية والجغرافيـة التى تولى نشرها ، وكان ترتيب هـذا الـكتاب الثانى بينها ، ونشر فى مدريد عـام ١٩٢٦ .

ثم أعيد نشر هذه الدراسة وحدها مرة أخرى فى كتاب « نبذ ومقالات » ، ويتضمن أهم دراسات هـذا المستشرق الاسـبانى العظيم ، في الجـزء الاول منه ، الصـفحات ٤٣٥ ، ٤٥٦ ، مدريد ، ١٩٢٨ . وعنوانها فيـه : « ابن القوطية وكتابه » ، واخترت لها العنـوان الوارد أعلاه ، لانى رايته أكثر دلالة على المحتوى .

لو استطعنا الآن أن ننتقل تصوراً إلى المكان والزمان الذى عاش فيه ابن القوطية ، وتعرفنا إلى الصفات الخارجية لشخصه فحسب ، وأدركنا الجو الاجتماعى الذى أحاط به ، ربما كونا عنه ، وعن المجتمع الذى عاش فيه ، فكرة خادعة إلى حد ما .

يمكن أن نزور هذه الشخصية المسلمة التى حملت اسم محمد ، فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى ضيعته الجميلة التى كان يملكها فى واد مورف ، تتناثر على بساطه بيوت ريفية مطمئنة ، تحت سفح جبل العروس الحالم ، وحوله تنتشر قصور ضخمة فخيمة ، فقد أصبح من المظاهر الأرستقراطية ، منذ أسس عبد الرحمن الناصر الحى الملكى الرائع ، الذى حمل اسم الزهراء ، أن يملك الشخص ضيعة فى هذه النواحى :

ذات أصيل هبط صاحبنا **محمد** ، فى ملابسه الشرقية الفضفاضة المهيبة ، من ضيعته إلى المدينة ، ممتطياً صهوة جواده ، فصادفه أبو بكر **ابن هذيل** ، متوجها إلى ضيعة له بسفح جبل قرطبة أيضاً ، فحياه ببيت من الشعر :

من أين أقبلتَ يامن لاشبيه له ومن هو الشمسُ والدنيا له فلكُ

فتبسم صاحبنا ، وأجاب على البديهة :

من منزل تُعجب النساكَ خلوته وفيه سترٌ على الفتاك إن فتكوا

ولم يمالك ابن هذيل نفسه ، فقبل يد ابن القوطية إعجاباً ، ودعا له ، فقد كان تلميذه ، واحتفظ لشيخه بإجلال وقور .

وفى الحق كان صاحبنا **محمد** واحداً من كبار علماء المسلمين فى قرطبة ، واسع المعرفة مهابا ، « عالماً بالنحو ، حافظاً للغة ، متقدماً فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه » ، ولا يبلغون حتى موطئ نعله بتعبير النقاد فى عصره . وفيما يتصل بهذه العلوم ألف كتبا كانت مادة الدرس فى كثير من معاهد العلم لقرون طويلة ، ونشرت فى وقتنا هذا بين أمهات كتب التراث (١).

---

(١) الترجمة الموسعة والدقيقة لأبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم ، المعروف بابن القوطية ، توجد عند : ابن الفرضى ، تاريخ علماء الاندلس ، الترجمة رقم ١٣١٦ ، طبعة كوديرا ، (و ١٣١٨ ، فى طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦) .

وانظر ترجمته ، واخبارا عنه ، وعن مؤلفاته فى : المؤرخون والجغرافيون الاندلسيون ، تأليف بونس بوبجيس ، ص ٨٣ .

والموقوف على استمرار تدريس كتبه انظر : ابن خير ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، المجلد العاشر من المكتبة العربية الاسبانية ، نشر كوديرا وريبيرا ، ص ٣٢٤ .

وقد نشر كتاب الافعال لابن القوطية اجناسيو جريدى فى ليد ، وكتبه بريل عام ١٨٩٤ . (ونشره فى القاهرة أستاذى المرحوم الدكتور فؤاد حسنين) .

« وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا إنه تركه ورفضه » . وكان فقيهاً متمكناً ، واسع العلم بالحديث والسنة ، ولكنه تربوياً لم يسر فى تدريسها على مناهج الفقهاء فى عصره ، فاتهموه بأنه « لم يكن بالضابط لرواية فى الحديث والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها ، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيراً ما كان يقرأ عليه مالا رواية له فيه ، على جهة التصحيح » ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من العباد النساك . وقد « طال عمره ، فسمع منه الناس طبقة بعد طبقة ، وروى عنه جماعة من الشيوخ ، والكهول ، ممن ولى القضاء ، وقدم إلى الشورى ، وتصرف فى الخطط ، من أبناء الملوك وغيرهم » .

إذا حكمنا على هذا الفقيه الوقور من خلال الظاهر فحسب ، دراسة ودينا ، ولغة وملبسا ، مال بنا الظن إلى أنه ينتمى إلى أسرة ذات أصول عربية خالصة ، وحينئذ نقع فى الخطأ : إن هذا الفقيه الوقور الذى يتردد على المسجد الجامع يومياً ، يصلى خاشعاً ، ويلقى دروسه فى اللغة العربية متمكناً ، ويدرس الفقه فى زمن **عبد الرحمن الناصر** العظيم ، ينحدر مباشرة من أسرة غيطشة الملكية القوطية ، وهو طراز يقدم لنا المثل ، ونستطيع من خلاله أن نوجز ملامح الحضارة الأندلسية ، أو الإسبانية ، سمها كيف شئت . يمكن أن نقول عنه انه مؤرخ عربى ، فقد كتب مؤلفاته فى اللغة العربية ، ولكن الكنية التى يحملها : **ابن القوطية** ، تعنى أن الجانب الإسبانى من شخصه لم يذهب تماماً . فهو وآخرون كثيرون على شاكلته ، يمثلون قمة الثقافة العربية فى شبه الجزيرة الإيبرية ، يمكن أن ندعوهم عربا ، كما نطلق لفظ لاتينى على كثيرين من المؤلفين الإسبان الذين يكتبون فى اللغة اللاتينية ، دون أن يعنى ذلك أنهم تخلوا عن إسبانيتهم ، لا لأنهم ولدوا على أرض إسبانيا فحسب ، ولكن لأن الدم الإسبانى يتدفق عبر عروقهم .

والشيء نفسه كان يجرى فى عروق **ابن القوطية** ، وأسهم فى تكوين فكره ، ومن الضرورى أن نضع هذا العنصر فى حسباننا عند تفسيرنا لجانب كبير من محتوى مدونته التاريخية ، التى وصلت إلينا تحمل اسمه .

فى هذه الفترة ، من ذلك العصر ، وصلتنا مدونتان رئيسيتان : **أخبار مجموعة** و**كتاب ابن القوطية** ، وإحداهما تؤكد ما فى الآخر ، تكملها على نحو ما . وقد خبر المستشرق الهولندى **رينهارت دوزى** كلتا المدونتين جيداً ، وأفاد منهما كثيراً ، ومع ذلك يبدو لى أنه لم يستطع تحديد العصر الذى ألفت فيه المدونة الأولى(١) .

وقد ذكر **لفونتى القنطرة** ، فى الصفحة السادسة من مقدمته للطبعة التى نشرها من **أخبار مجموعة** ، محتذياً فى ذلك خطى **دوزى**، أن مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون قد عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى .

وهذا الرأى يعتمد أساساً ، فيما يبدو ، على الفقرة التالية من **أخبار مجموعة** : « وكان رأيه (أى عمر بن عبد العزيز) انتقال أهلها منها ، لانقطاعهم عن المسلمين ، وليت الله كان أبقاه حتى يفعل ، فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله » .

ويرى دوزى أن هذه العبارة لا يمكن أن يتفوه بها إلا مسلم عاش فى القرن الحادى عشر .

ليس من السهل على المؤرخ دائماً أن يتخلى عن وجهة نظره الذاتية عندما يدرس الشخصيات التاريخية التى يعرض لها . وفى الحالة التى نحن بصددها

---

(١) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٠ ، طبعة دوزى .

لايجب أن ننسى أن إمكانيات كاتب مسلم ، عاش فى الأندلس فى تلك الأيام البعيدة ، ليست نفس إمكانيات مؤرخ للأحداث يعيش فى شمال أوربا بعد ذلك بعشرة قرون .

فى كل العصور ، وحتى فى أفضل الأيام بالنسبة لأية جماعة اجتماعية ، ثمة أفراد يمكن للمؤرخ أن يصفهم بأنهم أشرار إذا لم يكونوا على وفاق معه ، أو مع أسرته ، أو مع طبقته . وأعتقد أن المؤرخ الذى فاضَ بتلك المشاعر الحزينة ، كان يعيش فيما نعتبره الآن أفضل أيام الخلافه الأموية فى الأندلس ، أى فى عصر **عبد الرحمن الناصر** .

لكى ندرك على نحو أوضح المنظور التاريخى الذى كان أمام مؤلف مدونة « **أخبار مجموعة** » ، وكتب تلك الفقرة المتشائمة ، علينا أن نبحث عنَ المؤلف الذى حرر هذه المدونة .

إذا توقفنا قليلا فى **أخبار مجموعة** وجدنا أنها مجموعةمن المذكرات والفقرات التاريخية ، سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطاً منهجياً أو يرتبها تاريخياً . وهو فى روايته يتجاوز أحداثاً وقعت ثم يعود إليها ، مثلا بعد أن يذكر مغامرة **عبد الرحمن الداخل** ، والنهاية التعسة لبنى أمية فى المشرق يعود إلى ولاية **أبى الخطار** فى إسبانيا ، وثمة فقرات يبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلى فيما بعد ، دون أن تكون لها صلة بما كان يهتم به الكاتب الأول .

ولست أشك فى أن أشخاصاً عديدين أسهموا فى تأليف **أخبار مجموعة** ، يختلفون ثقافة وفكراً وزمناً وذوقاً ، ويمكن أن نتعرف إليهم من خلال المواد المتباينة التى يوردونها ، والأفكار ووجهات النظر التى يعبرون عنها ، وحتى من خلال الأسلوب الشخصى لكل واحد منهم : أحياناً نجد الرواية مطولة مفككة ،

حافلة بالتفاصيل ، كتلك التى كتبها أولئك الذين بدأوا تحرير هذه الأخبار ، وأحياناً أخرى مركزة موجزة مقتضبة . وبعض الذين أسهموا فى الكتاب يميلون إلى أخبار الحروب وأحداث السياسة ، دون غيرها ، ويعتبرون ما عداها تافهاً . والبعض الآخر يميلون إلى شئون الدين ، وقضايا الفقه والأخلاق ، لا يهمهم أو يستلفت انتباههم ما عداها . ومن الواجب أن نشير إلى أنهم جميعاً يصدرون عن اتجاه متشابه ، من عصبية قبلية ، أو وحدة طبقية ، كما لو كانوا كلهم ينتمون إلى أسرة واحدة ، أو قبيلة بعينها .

أول هؤلاء الذين أسهموا فى تحرير الكتاب لا بد أن يكون **رجل حرب** لأنه لا يقف باهتمامه عند الحملات الحربية خاصة فحسب ، وإنما يعرض لما يستخدم فيها من ذكاء وحيلة ، والحاجة إلى الأدلاء الذين يقودون الجيش إلى مواطن الضعف فى جبهة العدو ، واستخدام الجواسيس الذين يعرفون عورات البلد ، ويدرك مواقف الفتح الخطرة ، ووسائل الوقاية والأمن التى تتخذ فى المدن المفتوحة ، وأن من الضرورى أن يتبين الفاتحون الصديق من العدو ، بل ويتوقف طويلا عند أعداد الجنود ، والوضع الذى يأخذونه فى المعارك ، ويصف ذلك كله دون أن يلجأ إلى الأساطير والمبالغات ، ويشرح التحركات الفنية فى القتال ، من المفاجآت والأحداث الحربية الأخرى ، كما لو كان خبيراً واسع التجربة والدربة ، ويعتمد فى معرفته على العلم والتقاليد العسكرية ، وليس على كلام العامة وشائعاتهم .

وهو **سياسى** أيضاً . يرد الأحداث إلى أسبابها الحقيقية ، ويستخف بأقاويل العامة ، ويحتقر الناس المرفهين ، ويدبر ظهره للعسكريين الذين يجهلون واقع الأشياء ، ويورد مفاوضات **عبد الرحمن الداخل** السياسية فى تفصيل حافل ، يشى بأنه شهد بشخصه بعض تلك الأحداث .

وهو **قرطبي**، يتحدث عن الأمكنة فى قرطبة، كمن شهدها رأى العين، ويعرف ما طرأ عليها من تغيير فى البناء، أو المآل، أو الاسم، كالمساجد والمقابر، ويقدم لنا تفسيراً لما أصابها من التغيير.

وهو **عربى**، شريف النسب، من قبيلة قريش، يحفظ من الذاكرة أسماء القبائل العربية الكثيرة، وروابط الصداقة التى تجمع بين كل قبيلة وأخرى، وعلى علم تام بالمحالفات أو العداوات القائمة بين الأسر المختلفة. يهتم كثيراً بالأنساب والأسر الشريفة، والمناصب التى تتولاها. ويعجبه من رجال الطبقة الدنيا تقديرهم الموالى، رغم أنه لا تجرى فى عروقهم دماء عربية. وحين يسمى أحدا ينتسب فى قبيلة قريش يلزم نفسه بأن يشير إلى البطن أو الفخذ الذى ينتمى إليه. وإذا جهل بعض تفصيلات النسب، وهو قليلا ما يحدث، يعترف به كعيب فيه ويعتذر عنه. ويحلو له أن يسجل الاحترام الذى عليه أن يحتفظ به إزاء قبيلة قريش ومواليها، ويدعو غيره إلى توقير الأشراف، ويبقى على كل واحد فى مستوى طبقته، وينصحه ألا يدعى لنفسه من الشرف أكثر مما يستحق، ويحتفظ بالرتب، ويعين المناصب العليا لكبار القوم. ويرى أن الإنتماء فى قبيلة قريش يفتح الطريق أمام امتيازات كثيرة، بما فيها ألا تتعرض حياتهم للاعتداء عليها أبدا.

وأخيراً، **هو من البيت الأموى**، يشير إلى الأمويين كلهم تقريباً، قبل أن يجئ العباسيون إلى الحكم فى المشرق، ويهتم بذكر الأحداث التى قام بها أفراد يرتبطون بأسرته. وفى الحملات الحربية يشير بوضوح إلى الأمكنة التى شغلها أمويون، ويسجل حتى أتفه الأعمال التى قام بها بعضهم، ويورد نماذج من الأدب والاحترام التى يحتفظ بها صغارهم لكبارهم، ويطنب فى ذكر أفراد

الأسرة الأموية الذين دخلوا إسبانيا بعد مجئ **عبد الرحمن الداخل** ، ويأتى على أخبارهم تفصيلا.

وكاتب فى مثل هذه الحال ، لا يستبعد منه ، فى ضوء خبرته المباشرة ، وثقافته الحربية والسياسية ، أن يقدم لنا مدونة مفصلة ودقيقة إلى حد بعيد ، تبدأ من الفتح وتمتد حتى ارتقاء **هشام الأول** عرش الإمارة .

وبعد هذا القسم ، فيما يليه من المدونة ، سوف تتغير الصورة تماماً : سوف تختلف طريقة الكتابة كلية ، واختيار المادة التاريخية أيضاً ، ولم تعد الحملات الحربية ، ولا الموضوعات العسكرية ، تعنى الذين كتبوا هذا الجانب من المدونة . وإذا عرضوا لها مرة ، جاء حديثهم عنها خالياً من التفصيلات التقنية ، كما يفعل غير المختصين من الكتاب ، وحتى الموضوعات السياسية لا تسترعى انتباههم ، وإنما تركز اهتمامهم ، على نحو واضح ، **بالموضوعات الدينية** . إذا تحدثوا عن الأمراء لا تعنيهم البطولات ، وإنما يعرضون لهم بطريقة تجريدية ، يذكرون مميزاتهم الثقافية ، وفضائلهم الخلقية ، ويشيرون إلى ما هم عليه من خشوع وتقوى ، ويتحدثون عن أدبهم وحبهم للفقهاء ، ويضمنون حديثهم عن الحكومة الصالحة المواعظ الخلقية وأبيات الشعر ، مما يوحى بأن **كاتب هذا الجانب من المدونة فقيه أديب ينتسب فى قبيلة قريش** . يحتفظ بين أوراق أسرته بخطابات قديمة ، كوثائق عائلية ، عليه كفقيه أن يواصلها . ونعرف بعضاً من أمثال هؤلاء الفقهاء القرشيين ، ويرد فى الخاطر فقيه منهم ، كان يتمتع بشعبية واسعة ، وشهرة علمية فياضة ودرج القرطبيون على أن ينادوه فى لقبه الرومانثى : ابن الشبنسية Sepancia (١) .

---

(١) ابن الابار ، الترجمة رقم ٢٦٦٥ ، فى الجزء الذى نشره مركز الدراسات التاريخية ، من تكملة الصلة ، مدريد ١٩١٥ .

فى أى عصر عاش ، أو كتب ، الفقيه الذى حرر الجزء الأخير من مجموعة الأخبار التاريخية هذه ، والتى حملت اسم « **أخبار مجموعة** » ؟ .

أنا أعتقد أنه عاش فى **عصر عبد الرحمن الناصر** ، حيث تتوقف الرواية ، وتلك الأيام التى تحدث عنها المؤرخ كأيام مخيفة ، بل وتعيسة يرثى لها ، وشهدت احتضار القوة العربية ، ليست عقبة تحول دون هذا الرأى .

كل فرد ، كما سبق أن قلنا ، تبدو له الأيام سيئة ، وحتى تعسة ، حين تقع لشخصه أو أسرته أو قومه أحداث غير مرضية ، ومن ثم هناك من يتحدث بسوء حتى عن أفضل الأيام التى تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن **الخشنى** (١) يحدثنا عن قاض من قرطبة فى عهد **عبد الرحمن الناصر** عرض لتلك الأيام فوصفها « بفساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتبهة التى لا تتبين له حقيقتها ، ولا يكشف له وجهها » . وعندما تحدث **الخشنى** نفسه عن هذا القاضى ، وصفه بأن « مذاهبه محمودة ، وسيرته حسنة ، وهديه جميلا ، وكان له من الوقار والإخبات ما بذ به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره » . ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت فى أيام **عبد الرحمن الناصر** . وفيها نجد كثيراً من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتينى ، ومن ثم فهم ليسوا عرباً ، واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ، ثم استنزلوا من حصونهم ، وأصبحوا معاهدين ، وأصحاب نفوذ فى قرطبة ، وأباحوا لأنفسهم رخصاً لا يرتضيها قانون الدولة الإسلامى ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسبانى ، ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رن فى عاصمة الخلافة الإسلامية ، كمرشح لمنصب قاضى الجماعة ، مما أثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف .

---

(١) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربى وترجمته الى الاسبانية ، وقام بها خوليان ريبيرا نشرا فى مدريد عام ١٩١٤ .

أى فقيه تقى من قبيلة قريش الشريفة لا ينفعل فكرياً بالأحداث السياسية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ، ويدفعون الأشراف العرب الأصلاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسيرون السياسة القرطبية ، إلى مكان ثانوى مغمور ، خامل الذكر ؟ ويرى الأسر الإسبانية الحديثة العراقة ، وليس فى عروقها نقطة من دم عربى ، تخلف القرشيين فى المناصب السياسية والحربية فى إمبراطورية بنى أمية ؟ .

مثل هذه الأيام ، فيما يرى أى قرشى ، بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبئ بنهاية حكمها فى شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام ! .

والحق أن **الفقيه الشريف** الذى كتب هذا الجانب من المدونة كان واقعاً تحت هذا التأثير ، ودليلنا عليه موقفه من **عبد الرحمن الناصر** فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التى حققها الخليفة أضاف ، وأصاب فى ذلك كبد الحقيقة : « ولكنه — عفا الله عنه — مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء ، واستمد بغير الكفاءة ، وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال ، **كنجدة الخبرى** وأصحابه الأوغاد ، فقلده عسكره ، وفوض إليل جليل أموره ، وألجأ أكابر الأجناد ، ووجوه القواد : والوزراء من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال **نجدة** حال مثله فى غيه واستخفافه ، وركاكة عقله »(١) .

ألا يبدو لنا الآن من الوضوح بمكان ، أن **قرشياً** من أيام **عبد الرحمن الناصر** ، يتحدث عن ذلك العهد فى تشاؤم ؟ ! :

---

(١) اخبار مجموعة ، ص ١٣٥ من الترجمة ، و ص ١٥٥ فى النص العربى .

ولأن الذين حرروا أخبار مجموعة ينحدرون من أسرة عربية قرشية شريفة ، ليس لنا أن نعجب من احتقارهم للطبقة الدنيا من عامة الناس ، وبخاصة السكان الأصليين الذين ينحدرون من أصول إسبانية . ولقد انصرفت عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم ، ووجهوا جل اهتمامهم إلى القرشيين من بينهم ، وإلى البيت الأموى من بين القرشيين بخاصة . أما العناصر الاجتماعية الأخرى فلا تحتل من الكتاب إلا مكانا منزوياً حقيراً ، ويجئ الحديث عنها فى إشارات عابرة وذلك أكبر نقص يؤخذ على الكتاب .

* * *

أما كتاب ابن القوطية ، على نحو ما وصلنا ، فعلى العكس من ذلك ، ونشك فيما إذا كان ابن القوطية نفسه مؤلفه المباشر ، وكتبه قاصداً . فهو ليس كتاباً انتظمت أقسامه ، وارتبطت منهجياً ، كعمل أدبى لمؤلف واسع العلم ، غزير الثقافة ، وهو ما كان عليه ابن القوطية فيما يقول المؤرخون . ولكنه مجموعة من الأخبار القصار ، دونها بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار ، فجاء لوحات جزئية ، لا رابط بينها أحياناً ، أو روايات منفصلة لأحداث تاريخية ، ليست من إنشاء ابن القوطية نفسه ، وإنما حررها أحد سامعيه ، فهو يقول مثلا : « قال لى ابن القوطية » . وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعر ، وتقوم على أساس من التاريخ ، ولا يؤلف بينها رابط قوى ، ولا يجمعها تناسق خاص ، ويورد أحياناً ، كما يحدث فى آخر الكتاب ، روايات ملفقة تماماً ، أقرب إلى أن تكون ثرثرة .

هذه الإشارات تجعلنا نعتقد أن ابن القوطية لم يحرر هذا الكتاب شخصياً ، وإنما هى نقاط نقلها أحد تلاميذه من دروس عديدة له ، حاول فيها أن يعرض ما يعرف من تاريخ إسبانيا ، أو مجموعة من الأخبار التاريخية كان يحتفظ بها بعض أبنائه أو أحفاده ، ثم تولوا ترتيبها على النحو الذى وصلتنا عليه .

وثمة إشارات أخرى تومئ إلى أن ابن القوطية لم يؤلف هذا الكتاب بهدف أن يكتب عملا أدبياً ينسب إليه .

فابن الفرضي المؤرخ ، صاحب التراجم المعروف ، وتتلمذ شخصياً على ابن القوطية ، يحدثنا عن نفسه أنه اختلف عدة أعوام إلى الدروس الأدبية التي كان يلقيها ابن القوطية في مدينة قرطبة ، وقد أعجب به ، وأثنى عليه كأستاذ عظيم . وعاش ابن الفرضي بعد ابن القوطية ستة وثلاثين عاماً(١) ، فلو كان ابن الفرضي يعرف أن لابن القوطية هذا الكتاب محرراً ، أما كان يغتنم الفرصة ليفيد منه في كتابه « **تاريخ علماء الأندلس** » ، أو على الأقل أن يشير إليه ولو مرة واحدة ، كما ذكر مؤلفات : عبد الملك بن حبيب ، والرازي ، والخشني ، وآخرين ؟ . إنه لم يذكر كتاب ابن القوطية هذا ولا مرة واحدة إذا شئت . والترجمة التي خصه بها ، وهي أكمل ترجمة له وصلتنا ، تتحدث عن مؤلفاته في النحو واللغة فحسب ، وإلى جانب ذلك ، كان ابن الفرضي على علم تام بأن ابن القوطية ينطوي على حب عميق لمادة التاريخ ، فهو يحدثنا عنه قائلا : «وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، ملياً برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهائها وشعرائها ، يملي ذلك عن ظهر قلب » . ولكنه لا يذكر لنا صراحة أنه كتب أية مدونة ، أو ألف أي كتاب خاص عن تاريخ الأندلس . وذلك ، فيما أرى ، دليل على أنه في حياة ابن القوطية ، وحتى سنوات بعد وفاته ، لم يكن الكتاب الذي يحمل اسمه قد عرف طريقه إلى الجمهور .

غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قوياً في نطاق أسرة ابن القوطية . فقد سار ابنه المسمى عمر ، ويكنى أبا حفص ، في الطريق نفسه ، فكان أديباً

---

(١) توفي ابن القوطية عام ٣٦٧ هـ — ٩٧٧ م

شاعراً ، وروى عن أبيه وغيره (١) . وكان من سلالته **عبد الملك** ، ويكنى **أبا الوليد** ، ويعرف **بابن القوطية أيضاً** ، « متصرفاً فى العلوم من الفقه والعربية والحساب ، محسنا لعقد الوثائق ، بصيراً بعللها ، راوية للأخبار ، حافظاً للآداب ، وروايته للعلوم واسعة ، وشيوخه كثيرون بقرطبة وإشبيلية ، وروى عن عمه **أبى بكر**»(٢) ، أى **ابن القوطية** صاحبنا . وأحد هذين ، أو أى تلميذ آخر ، يجب أن يكون قد حرر **تاريخ افتتاح الأندلس** ، على النحو الذى وصلنا عليه .

ومع ذلك ، ورغم أن ابن القوطية لم يكن هو الذى حرر الكتاب شخصياً ، فإن المادة التى تضمنها وتنسب إليه ، تتفق تماماً مع كل ما نعرف عن شخصه وجنسه وأسرته وتربيته وثقافته ، وما إلى ذلك ، وليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتصل بها .

فالمؤرخون ، حتى دون قصد منهم ، ينقلون إلينا وجهة نظرهم الشخصية ، يروون ما يهمهم أكثر ، ويضعون عليه ظلالا تعكس حالتهم النفسية ، **ومحتوى تاريخ افتتاح الأندلس يتفق تماماً مع نفسية ابن القوطية** .

هوفقيه من **قرطبة** ، ولكنه واسع الأفق ، أديب عميق ، واسع الثقافة ، يجرى فيه جانب من الدم العربى ، فهو مولى بنى أمية ، ولكنه من جانب آخر ، يتحرك فى أعماقه إنساناً ويغلى روح إسبانى ، وشرف أسرة نبيلة ، تنتمى إلى الأسرة القوطية المالكة .

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٤٩ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٨٥٤ من طبعة القاهرة) .

(٢) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٧٧٠ ، طبعة القاهرة) .

وهو مسلم مخلص ، تربى فى وسط دينى شديد المحافظة ، ودرس مبادىء أشد المذاهب الإسلامية سنية ، ودافع عن اتجاه تاريخى خلقى تستشفه خلال كتابه ، ومؤداه أن الذين يعملون الطيب ، والصالحين والأتقياء ، يتلقون الثواب فى الدنيا ، وأن الأشرار والسيئين ينالهم العقاب فى الدنيا أيضاً ، فضلا عما ينتظرهم فى الآخرة .

والملوك الصالحون هم الذين يقربون الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وبهذا يصبحون سعداء ويسعدون رعاياهم . ولكنه مع ذلك لم يكن متشدداً ولا متعصباً ، ويورد أخبار زرياب فى ود ، رغم أنه كان موسيقياً ، ولا يتردد فى رواية السنة على نحو قد لا يرتضيه منهج المحافظين على أيامه .

ولأنه كان مسلماً صادق الإيمان لم يكن لديه ما يخجل منه فيما يتصل بموقف أفراد أسرته الذين ساعدوا حملة الفتح الإسلامى ، بل ويمكن القول إنه غالى فى الخدمات التى قدمها أسلافه إلى العرب ، فى تواطئهم الخائن ضد الشعب الإسبانى . وإنه كمؤمن صادق الإيمان يعتبر أن الفتح الإسلامى هبة إلهية لإنقاذ البشرية .

وقد ارتبطت أسرته بالولاء لبنى أمية ، لأن جدته **سارة القوطية** ، حفيدة **غيطشة** ، ذهبت إلى دمشق ، تشكو إلى الخليفة **سليمان بن عبد الملك** ظلامة أصابتها من أحد مواليها المسلمين ، فأنصفها [وزوّجها من عيسى بن مزاحم ، الذى قدم الأندلس معها ، وسكنا إشبيلية] ، ومن ثم كان صاحبنا **ابن القوطية** يعتبر ملوك الأندلس الأمويين موالى له . ولهذا السبب أيضاً ، فإن اهتماماته وآراءه التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع آراء وأفكار مؤلفى **أخبار مجموعة** وكانوا أمويين أيضاً . فهم ، وابن القوطية ، يتفقون فى كتابيهما على احتقار **موسى بن نصير ولذريق** ، ويعتبران هذا الأخير غاصباً ومتكبراً وفارغاً ، ومستخفاً

بالتقاليد الدينية ، ومغتصباً للنساء ، ومرتكباً لرذائل وآثام أخرى كثيرة . وفيما يرون جميعاً فإن موسى بن نصير ، وعزله الأمويون السوريون ظلما وبطريقة مخجلة ، مثل واضح للطموح المبتذل ، وقد حقد على طارق القائد المحظ ظ الذى عهد إليه بفتح إسبانيا ، ضربه كعبد حقير ، اختصم معه حول رجل المائدة . وبما أن موسى وابنه انسجما مع أسرة لذريق ، وحتى ارتبطا عائلياً ، فإن الأمويين أتباع غيطشة كرهوا موسى ومواليه ، ولذريق وأتباعه وعاقبوهم : وفى هذا يتفق أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية .

ولكن هناك ، كما أشرنا من قبل ، اختلافاً جوهرياً بين محتوى الكتابين : مصدره اختلاف سلالة مؤلفيهما . فالقرشيون الذين ألفوا أخبار مجموعة ، يظهرون احتقاراً كبيراً نحو العنصر الأصلى من السكان ، قلما يعرضون لهم ، ولا يكادون يهتمون تقريباً بغير البطولات العربية ، والقرشيون من بين هؤلاء بخاصة ، والأمويون من بين القرشيين على نحو أخص . فى حين أن ابن القوطية ، ويحس بالدم لإسبانى يتدفق عبر عروقه ، احتفظ فى أعماقه بشرف جنسه حياً ، فأدخل فى كتابه العديد من الروايات التى تعرض لموقف العنصر الإسبانى ، من سكان البلد الأصليين .

ومسألة الشرف هذه تفاقمت للغاية فى الأيام التى سبقت ابن القوطية ، وبخاصة فى عهد الأمير عبد الله ، حين كانت كل العناصر الاجتماعية فى إسبانيا الإسلامية تضطرب بعنف ، لغياب القوة المركزية التى تسيطر عليها .

وفى بلد ، كشبه الجزيرة يومها ، يتعايش الناس من أجناس مختلفة ، أديان متباينة : مسلمون ومسيحيون ويهود ، وعرب وقوط ورومانيون غيرهم ، وقبائل وأسر ظلت حتى ذلك الوقت تحتفظ فى قوة بخلافاتها القبلية والعائلية ، من عرب وجرمان ، ليس من الغريب فى النضال الاجتماعى ، أن يشتد الزهو

بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك ، و إلى هذه الأسرة أو الأخرى ، و إلى هذا الدين بعينه . فالمسلمون يحتقرون اليهود والمسيحيين ، يتجنبون الاتصال بهم أو الاحتكاك بهم ، والذين ينحدرون من أسر شريفة يحتقرون العامة والذين فى أدنى سلم الحياة ، و ينفرون من التعامل معهم .

غير أن التعايش أمر لا مفر منه ، وضرورات الحياة فى أحايين كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح ، وفى بعض الحالات إلى التلاقى والتعاون ، ومن ثم انتقلت مسألة الشرف إلى أوساط أخرى ، وأخذت طابعاً مختلفاً ، طابعاً معنوياً لا صلة له بالجنس أو الأسرة .

نعم ، أصبح الإحساس بالكرامة الشخصية شديداً ، وأصبح الشخص الذى حقق شيئاً من الهيبة الاجتماعية يعتقد أنه أهين إذا وجد نفسه مضطراً إلى أن يتعاون مع شخصية أخرى من طبقة أدنى ، وصار السلوك الخلقى المحمود يكسب صاحبه قيمة وثقة . وإذا ميز أناس موقرون شخصاً ، أو نعتوه بأنه كريم ارتفع بهذا العمل وحده فى التقدير الاجتماعى . وإذا ارتكب شخص من أشراف قريش فاحشة ، فإن قاضى قرطبة يمكن أن يعزره و يذله . و لا يتوقف تقدير المرء على سلوكه الشخصى فحسب ، وإنما يتأثر أيضاً بموقف الأسرة نفسها فهو ينعكس على مكانة أفرادها ، فالموقف السيء لابن يؤدى إلى تعزير الأب أحياناً . وقد اضطر قاض فى قرطبة إلى أن يستعفى من منصبه بسبب مجون ابنه . وعندما بلغ ابن أحد للقضاة سناً متقدمة ، أدى ذلك إلى الشك بأن الأب لم يعد كامل الأهلية ، ومن يطلب ، أو يرجو لنفسه منصباً عاماً ، يعتبر مسلكه هذا ، أحياناً ، بأنه غير كريم .

هذا الإحساس الخلقى ، الموسوس والقوى ، فى الشعب الأندلسى ، أدى إلى تكوين جماعات سياسية مختارة ، تقود الشعب بآرائها ، وتحتفظ فى الوقت نفسه باحترام كامل لأمرائه .

إنه إحساس مدنى راق ، هيأ إلى جانب ظروف أخرى سياسية واجتماعية لإمبراطورية الأمويين فى الأندلس أن تبلغ أوج عظمتها على يد **عبد الرحمن الناصر** .

وليس ثمة شك فى أن ابن القوطية تأثر بهذا الجو المعنوى ، وأحس بكل هذه الدوافع التى تجعل مواطنيه يرتفعون به مرتبة عالية متميزة فى درسه ، واعتدال سلوكه ، وسلامة تدينه ، واحترام نسبه العربى والقوطى . وقد روى لنا الأحداث التى أسهمت فيها أسرته ودورها فى القضايا العامة ، ولأن دم عنصرين يجرى فى عروقه ، فقد خدم الاثنين فى مدونته .

نجد فى **كتاب ابن القوطية** عدداً من الأساطير ذات الطابع القومى كانت تتداول شفاها بين المسلمين القوميين الإسبان(١) ، وتعكس فى تضاعيفها دون قصد ، وعلى نحو واضح ، غلبة العنصر الأصلى من السكان على أيامه ، وهو يروى الوقائع دون أن يموه أو يشوه قاصداً .

وقد وجد **ابن القوطية** نفسه ، دون أن يقع ذلك فى خاطره ، مرتبطاً بقومية بعض الفرق التى شاعت فى الأندلس ، ولكن فى اعتدال ، مدفوعاً إليها بثقافته المالكية ، وعلاقاته بالأسرة الأموية ، وروايته **لأرطباس** مع **الصميل بن حاتم** و**ميمون العابد** ، وهى رواية زهاد قوميين ربما تفرعت عن اتجاهات شيعية ، تظهر لنا العرب فى صور الجهلة المبتذلين ، وتصور لنا أرطباس القوطى رجلا عظيم المواهب ، حميد الأخلاق ، وحتى ممتازاً فى صلاته الاجتماعية .

ويورد مؤلفنا فى كتابه عدة روايات ذات طابع ملحمى ، تتميز بأنها

---

(١) جانب كبير من روايات ابن القوطية يعتمد على الرواية الشفوية ، سمعها من أساتذته الاسبان ، الى جانب بعض آخر منها أخذه من كتاب عبد الملك بن حبيب ، والمنظومة التاريخية للشاعر تميم بن علقمة ، وضاعت ولم تصلنا .

قصيرة، عن أزهى أيام إسبانيا الإقطاعية فروسية ، وتشمل الفترة التى تمتد من عصر الأمير محمد إلى عصر الأمير عبد الله ، وفيها ازدهر الشعر الملحمى على يد الشاعر تميم بن علقمة ، وكان متزوجاً من ابنة كونت مسيحى فى الأندلس : وفى هذا الوقد نفسه كان بنو قسى فى أرجون ، وهم إسبان اعتنقوا الإسلام . وتعودوا أن يلهبوا روحهم المقاتل حماسة بإنشاد أشعار عنترة بن شداد .

ولم يكن ابن القوطية سعيداً بسلوك المتمردين على البيت الأموى ، ومع ذلك كان يُسر برواية أخبار قصصية ، كأخبار الشاعر غريب ، الداهية المتعصب لقومه من أهل طليطلة ، وعن وقائع مروان الخليقى بناحية بطليوس وأعمال إزراق فى وادى الحجارة ، وأخبار عمر بن حفصون وغيرها . ويبدو السخط الشعبى فى بعضها واضحاً ، دون قناع ولا تخفف ، ويحدد من خلال الأساطير العقاب الذى سيوقعه الله بالعاصين . فبعد مذبحة وجوه طليطلة الغادرة ، « حين أتى القتل منهم إلى خمسة آلاف وثلاثة مائة ونيف ، وأثبت عبد الرحمن بصره فى السيف ، فلم تزل به غمزة فى عينه إلى أن مات » .

الاتجاه القومى المعتدل طابع كتاب ابن القوطية ، ويجعل له قيمة كبيرة ، فقد ضمنه أخبار بقية عناصر السكان المسلمين من غير العرب ، الذين أهملهم المؤرخون الآخرون تماماً ، وبذلك جعل محتوى كتب التاريخ العربى أشمل مادة وأدق تسجيلا .

ومع ذلك ، وبالرغم من كل شىء ، فإن بعض العناصر ، وبهم تكمل الصورة التاريخية لإسبانيا الإسلامية ، تبقى أخبارهم غامضة ، أو تجىء على استحياء بين الوضوح والإبهام وهى صورة القوميين المناهضين للحكم الأموى والذين وقفوا فى وجه العرب ، متأثرين بمبادىء الشيعة الوافدة من فارس (١) ،

---

(١) وصلتنا أساطير كثيرة نلحظ فيها التأثير الفارسى ، وتأثير الشرق الأقصى ، مثل حادث تيودمير ، والبيت المغلق في طليطلة وغيرها .

وأنبتت التمرد ، وظلت مبادئها نابضة حية فى مؤلفات الصوفية أحيانا ، وأهمل كذلك الجماعات المسيحية واليهودية ، والحق أن كل المدونات التاريخية احتقرت أخبارهم ، فصمتت عنهم تماماً .

وقد وفق **بشكوال جيانجوس** فى أن يلحق بنهاية **كتاب ابن القوطية** عدة نصوص تاريخية(٢) ذات أهمية ، وبخاصة ما نقله عن **ابن قتيبة**(٣) ، ولو أنها فى الحقيقة تتضمن حوادث لم تقع فى إسبانيا ، وإنما حدثت فى المشرق وتتصل **بموسى بن نصير** بعد أن غادر شبه جزيرة إيبريا ، وعلى الرغم من أنها أساطير ترد فيها الوقائع التاريخية مشوهة ، إلا أنها تبين لنا إلى حد ما نظرة المشارقة إلى الأندلس لحظة الفتح ، ونحتاج معها إلى أن ننعم النظر فى بعض الشخصيات وفى بعض الأحداث ، وحاول مؤرخو البيت الأموى وأتباع غيطشة غمط تاريخهم كل ما كان ذلك ممكنا .

ينعكس الانطباع الذى أحدثته فتوحات **موسى** الكبرى فى المشرق ، بطريقة جيدة للغاية ، فى الأساطير التى أوردها **ابن القوطية** ، ومن المؤكد أن المسلمين هناك قد اعترتهم الدهشة ، واجتاحتهم الحماسة ، عندما عرفوا السرعة التى اتسعت بها الإمبراطورية الإسلامية . فلم تمض اثنتان وتسعون عاماً على الهجرة حتى بلغ الإسلام شواطئ بحر الظلمات ، نهاية الأرض المعروفة فى ذلك الحين ، ثم عبر المضيق ، وانتشر فى جانب لا بأس به من أوربا ، وفى فورة الحماسة صيغت أروع الأقاصيص خيالا وأطرفها ، وأشدها مبالغة ، غالوا فى

---

(٢) وقد ترجمتها أيضا مع الكتاب ، والذى كتبت هذه الدراسة مقدمة له .

(٣) ترجمها فى كتابه « تاريخ الدول الاسلامية فى اسبانيا The History of The Mohammedan in Spain ، ج ١ ص ٥٠ وما بعدها من الملحق والجزء الثانى ص ٣ وما بعدها .

تقدير الثروات والكنوز التى وجدها المسلمون فى إسبانيا ، كما لو كانت دورادو El Dorado (١) المسلمين .

هذه المبالغات المفرطة لابد أنها أثارت الشكوك حول سلوك موسى ابن نصير قائد الحملة ، وشاع الظن بأنه احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من هذه الكنوز ، لأنه لم يدخل فى خزائن الدولة القدر المناسب ، والذى تستحقه شرعاً من هذه الثروات الأسطورية ، وتبريراً لهذا الشك اخترعوا أساطير تقول إن كنوز ملوك كثيرين أصبحت فى حوزته ، وتيجانهم وأحزمتهم الذهبية ، وأقداراً لاتحصى من الجواهر واليواقيت ، والطنافس المنسوجة بالذهب والفضة والجواهر ، والأثاث المصنوع من أغلى المواد ، وإلى غير ذلك كثير .

وفضلا عن ذلك ، أصبح هذا القائد المسلم وأسرته يحكمون مساحات شاسعة جداً من الإمبراطورية الإسلامية ، من تونس إلى المغرب وإسبانيا ، وشاعت الأخبار عن معاملته الحسنة ، وانسجامه مع الملوك الغرباء الذين خضعوا له ، حتى أن أحد أبنائه تزوج من أرملة ملك إسبانيا ، فأثار ذلك كله شكوك الخليفة الأموى بأن موسى يمكن أن يستقل بالأمر لنفسه .

حينئذ قرر الخليفة ، قلقاً ومتوجساً ومندفعاً ، أن يدعوه إلى المشرق وأن يعزله ، على حين اعتقد موسى ، وقد أصبح هرماً تقدمت به السن ، أن ماضيه فى خدمة المسلمين ، وولاءه للخليفة ، يجعله يحظى بالاحترام ، ويتيح(١) له أن يمضى فى وطنه شيخوخة هادئة ، فأذعن للأمر ، ترك إسبانيا ، وعرض نفسه فى بلاط الخليفة .

---

(١) الدورادو : بلد بالغ الثراء على نحو لا يقدر ، ولا وجود له الا فى مخيلة أصحابه ، وتصور الغزاة الاوربيون لامريكا اللاتينية أنه يوجد فى امريكا الوسطى ماخذوا يبحثون عنه عبثا . (المترجم)

وقد برهن استقبال موسى ، ومسلك الخليفة إزاءه ، والتدبير المرعب والنجس باغتيال ابنه عبد العزيز ، المتزوج من أرملة لذريق ، على ما كان ينتظر هذا القائد العظيم ، ولا يطاوله فى عظمته الحربية غير هرنان كورتس Hernàn Cortés (١) من جحود وقلة عرفان من خلافة دمشق ، جزاء قيادته الماهرة ووطنيته الصادقة ، وولائه لخليفته وأمته .

وكل هذه الأشياء التى يرويها لنا ابن القوطية ، مختلطة بالأساطير ، تجعل من النظرة التاريخية عند **أخبار مجموعة** ، وعند **ابن القوطية** ، أكثر اتساعاً ، وتساعدنا على أن نفهم بوضوح أشد خفايا الأحداث الكبرى فى التاريخ .

ورغم تعدد الروايات التى أوردها فثمة شك فيما يتصل بالتفصيلات التى تضمنتها ، والتى يمكن مناقشتها وبيان جانب الضعف فيها ، مثل التفاهة التى تقص كيف أن **طارق بن زياد** احتفظ بأحد أرجل المائدة التى عثر عليها فى طليطلة ، أم أن ذلك لم يحدث ، وعن حقيقة خوليان ، وغير ذلك من التفاصيل . والذين يهتمون بدراسة تركيب الظواهر الاجتماعية والسياسية فحسب ، سوف يجدون فى هذه المدونات التى ينشرها المجمع الملكى التاريخى ، تفسيرات واضحة عن العناصر التى كانت تتكون منها إمبراطورية بنى أمية فى إسبانيا الإسلامية ، والتى استمرت زمناً طويلا .

ويمكن القول بأن خروج موسى إلى المشرق ، واغتيال ابنه المتزوج من أرملة لذريق ، أدى بالضرورة إلى تغييرات عظيمة فى العلاقات السياسية الإسبانية . لقد استعيض عن موالى موسى ، والأسبان من أتباع لذريق ، بأناس من العرب أكثر ولاءً لبنى أمية ، مثل جند الشام ، وبأسبان من أنصار

(١) من قواد اسبانيا العظام في غزوها لأمريكا اللاتينية لحظة اكتشافها ، وعلى يده تم فتح واكتشاف المكسيك ، توفي عام ١٥٤٧ . (المترجم)

غيطشة ، وكان هؤلاء قد انسجموا سريعاً مع أمويى المشرق ، وبهم ربطوا مصيرهم .

ولقد حانت لحظة عابرة ، عندما أصبح **يوسف الفهرى** والياً على إسبانيا ، وبدا قدرها متأرجحاً غير مؤكد ، حينئذ بدأت الأساطير التاريخية تقدم لنا **أرطباس** . من أتباع **غيطشة** ، يجلس على كرسى أشبه بعرش ، يحيط به الرؤساء العرب فى شبه جزيرة إيبريا ، يحضرون عنده ، ويسألونه شيئاً من سخائه الملكى .

وعندما أزاح **العباسيون** فى المشرق **بنى أمية** عن الخلافة ، لم يمكن لأولئك فى شبه الجزيرة من يعتمدون على ولائه غير القليل ، فإسبانيا بعيدة عن الكفاح المجيد الذى اضطلعت به الأسرة الجديدة التى تولت الخلافة وأثار إعجاب الكثير من المسلمين ، فاهتبل الفرصة أحد أبناء الأسرة الأموية ، ووجد الظرف مواتياً لكى ينشىء هنا فى الأندلس مملكة مستقلة ، واستطاع أن يحظى بمساعدة موالى أسرته ، والعنصر الإسبانى من السكان الأصليين ، وكان يتمتع ساعتها بنفوذ وهيبة كبيرين . وتقدم لنا الروايات التاريخية **عبد الرحمن الداخل** فى نزهاته عبر شبه الجزيرة يصحبه **أرطباس** ، قمة حزب **غيطشة** . ولقد حدثت دون شك خلافات خطيرة بين الاثنين . وتجرأ عبد الرحمن الداخل فقبض إقطاعيات أرطباس ، ولكنها انسجما أخيراً ، واسترد أرطباس كرامته كاملة كرئيس للنصـــارى فى الأندلس ، واغتنم أتباع غيطشه الظرف تماماً ليحصل كل واحد منهم على مايستطيع من المراتب .

وقد بقى **أحفاد غيطشة** ، من ناحية الأب ، على عقيدتهم الدينية المسيحية ، دون أدنى شك ، واحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية فى نطاق التنظيم المسيحى ، وأمكنهم أن يحتفظوا بها بعد الفتح العربى ، وتولوا مراكز دينية سامية ، فأصبح أحد أبناء **سارة مطران إشبيلية** ، وشغلوا مناصب قضائية

وسياسية هامة ، فكان منهم قاضى العجم فى طليطلة ، وقومس الأندلس ، أما الأحفاد الذين انحدروا من ناحية الأم ، أى أبناء سارة القوطية وأحفادهم ، فقد أصبحوا مسلمين ضرورة ، بحكم الشريعة الإسلامية ، وذلك أن سارة القوطية عندما أحست بالمعاملة السيئة التى يلقاها عمها أرطباس ؛ ولما فى المرأة من ضعف ، ذهبت إلى الخليفة الأموى فى دمشق ، فبحث لها هذا عن زوج مسلم أوصى به عبد الرحمن بن معاوية ، أمير الأندلس فيما بعد . وقد آثرت السلالة التى انحدرت من سارة أن تتخذ مسرورة من اسم أمهم المسيحية لقبا لهم ، وفضلته على أسماء آبائهم المسلمين . ويقول ابن القوطية إن أحفاد سارة كانوا ، فى نطاق المجموعة الإسلامية ، يتمتعون بمكانة ممتازة ، وبهيبة بينة ، لم يتمتع بها أولاد أزواجها من نساء أخريات .

إن أتباع غيطشة يستطيعون أن يفخروا بأنهم ساعدوا على سقوط إسبانيا فى عهد موسى ، وبأنهم أسهموا أيضاً ، لصالحهم الشخصى ، فى تدعيم الإمبراطورة الإسلامية فى العصور التالية . وفى عصر عبد الرحمن الناصر ، وعاش ابن القوطية أيامه ، وكتب مدونته ، كان دم غيطشة لما يزل يتدفق حاراً فى صدور المسلمين .